صورة صدام حسين

من نفي العقل إلى إعادة صناعته

د. لؤي حمزة عباس

اذا كان الانسان حسب مرجعيات سوسيولوجية معلومة كائنا اجتماعيا، اي انه نتاج صادق لبيئته ومجتمعه، فان مثل هذا التصور يخضع اليوم لتغيرات جذرية بحكم تغير المؤثر وتبدل قنوات التأثير التي جعلت من انسان النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده كائن اعلام بالدرجة الاولى، اي انه نتاج شبكة معقدة من المؤثرات التي اختزلت بكلمة واحدة هي (الاعلام)، مثلما اختزلت هذه الكلمة مجمل فعاليات المجتمع البشري وتوجهاته، وغدت مسؤولة الى حد بعيد عنه، فالممارسة الاعلامية بتخطيها مهمتها الاخبارية وسعيها للقبض على الحقائق، او لصناعة الحقيقة نفسها عبر انفتاحها على التاريخ وقراءته قراءة موجهة، وعلى المستقبل عبر رصده والتنبؤ به واستباق صورته بحسب منظور أيديولوجي محدد، اخذت هذه الممارسة تعلن، بطريقة غير مباشرة في الغالب، عن واحدة من اخطر مهمات الصناعة على مر التاريخ، انها، بلا شك، مهمة صناعة العقل البشري من خلال ربطه بدائرة اعلام محكمة، متاهة تبدأ ولا تنتهي!

إنه لغز الحكاية القديمة، (الباب المغلق بين مجموعة ابواب) ظلت تحفز خيال الانسان وصولا لمملكة الصورة والكلمة، فقد ارتكب الانسان خطيئته وفتح باب الحكاية الموصد ليجد نفسه شفرة متناهية الصغر بين عدد لانهائي من الشفرات، وكنوع من الرد على الانهماك البشري في مهمات التشجير الاعلامي سيفضل عصرنا، في استعادة لتصور فيورباخ "الصورة على الشيء، النسخة على الاصل، التمثيل على الواقع، المظهر على الوجود.." حيث يتحول العالم الواقعي مثلما يؤكد جي ديبور في (مجتمع الفرجة) "الى صور بسيطة، تصبح الصور البسيطة كائنات واقعية، وحوافز فعالة لسلوك في حالة تنويم".

وفي مثل تلك المغامرات يقود الاعلام حروبا لا تنتهي من دون ان ينسى مواثيق امانته للسلطة بوصفه وجها من وجوهها وتجسيدا حسيا لاراداتها، انه احد اهم انماط السلطة ومظهر بليغ من مظاهرها فهي تعيد عبر قناته توجيه الحدث داخل منظومة من الرسائل المسموعة والمرئية، ليعبر حدوده الخاصة ويتجاوز قيمه كي يحيا ضمن فضاء اوسع تتقاطع فيه الرسائل مستجيبة لموجهاتها الدقيقة ضمن ديناميكية الحدث: حوادث السقوط وهي تختصر قيامات مقترحة، سقوط جدار برلين، سقوط برجي مركز التجارة العالمي، سقوط التمثال في ساحة الفردوس، لتشكل مثل تلك الوقائع كلا على حدة، اثرها الخاص في الفكر والممارسة البشريين وهي تتلقى بوصفها حدثا جماهيريا بالدرجة الاولى، ولنتذكر مقولة احد المعلقين وقد قال ساخرا: ان الذين شاهدوا سقوط تمثال طاغية العراق يزيد عددهم على الذين تابعوا نهائيات كأس العالم لكرة القدم! وهي الحادثة التي مثلت مشهد الذروة في الحرب الصورية وقد خيضت على شاشة التلفزيون بلحظاتها التفصيلية اشد مما دارت على ارض الواقع، اكثر دقة وتفصيلية، اذ ينفلت الحدث الواقعي بمحدوديته وجزئيته ما ان ينتهي مسلما ظلاله الوثائقية لعيني الباحث المؤرخ بينما ينفرد حدث الصورة بقدرته على الاستجابة والتوجيه الفوريين ضمن ارادة كلية تنظم الوقائع داخل مجال سردي واسع، وربما كان هذا المجال هو احد التطبيقات العملية لتصور بارت بخصوص السرد وهيمنته على التاريخ، لتغدو مقولة التاريخ نفسها ممارسة سردية متوزعة على عدد من الاحداث، الحقائق، الصور، وهي تستعاد في عصر الهيمنة الاعلامية استعادة رمزية محكمة في استجاباتها لحظر القطع والتوليف، وخطر التلاعب الحر بمفردات الصورة ضمن تقنيات رقمية عالية التحكم، تبدو معها مقارعات اعلام الدكتاتورية (دكتاتوريتنا) قادمة من ظلام القرون الوسطى في اصرارها على نفي عقل المشاهد امام عقل الدكتاتور الراسخ الحضور. من نفي العقل الى اعادة صناعته يخطو اعلام نهاية القرن العشرين خطوته الجبارة نحو قرن جديد باقتراح اساليب مبتكرة لتسويق حربين كبيرتين في افغانستان والعراق تحت مظلة عولمية تخضع الحرب فيها لتجاذب المصالح وتنازع الارادات، لا في سبيل الحفاظ مدة اطول على جثة الدكتاتورية وهي تتفسخ في عراء الحصار، بل باجتهاد كامل للدفاع عن (حقوق) دول العالم المتحضر في استثمار ارض بكر مثل العراق، وضمان ايفاء الديون المليارية لصالح فريق من دول النزاع، في حالي بقاء الجثة وزوالها. وهكذا تطل، في واحدة من ذرى الحدث، صورة صدام حسين بظلالها الكونية فاتحة عصر جديد لم يكن ينتظر غير برهانه على قدرة الصناعة الاعلامية الفائقة، قدرة التحكم وادارة الحدث، من مركز يظل لامرئيا وقت تنكشف المراكز وتضاء الكواليس. من حمام، او محجر صحي، او ردهة طب عدلي، او مطبخ في احسن تقدير، يطل وجه صدام حسين على العالم في لحظة بلاغية عالية ينجز فيها طباق التجربة العراقية ما لم ينجزه مجاز تاريخ العنف في العالم، لتكتمل الواقعة في سلسلة من ثنائيات ظلت تقود معاني الوطنية في دورة واسعة بين الحضيض والكمال، وهي تطوع مستجيبة لعنف الدكتاتورية وخلل تصورها لذاتها وللعالم، وخلل قياسها لذاتها فيه، حتى لحظة هيامها في متاهة بطولاتها، ونفيها في صحارى امجادها لتجد نفسها (هل وجدت نفسها حقا؟!) في تسليم كامل: في حمام، او محجر صحي، او ردهة طب عدلي، او مطبخ في احسن تقدير، وقد تركت قطع الموزائيك الابيض على الجدران من خلفها سؤالا عالقا في قلب مشهدها الاخير، يرن قبل ان تبدأ الايدي الاجنبية عملها مستترة بقفاز بلاستيكي، انها اللحظة التي تنظر الدكتاتورية فيها بعينين ساكنتين يتخاطف فيهما بريق الذهول لتشهد على ذاتها، محققة طباق وجودها في ظل مزاعم القوة التي عاشت عقودا تحت ظلالها، فهل يمكن للعبة السلطة العراقية ان تستعاد خارج سلسلة ثنائياتها: من القصور الفخمة الى الحفرة العميقة المعتمة، من الاناقة المفرطة الى البشاعة الصادمة، من الاباء الناصع الى الاستكانة الذليلة، من كتب الاسلحة الفتاكة الى المسدس غير المستعمل، من جحافل الحرس الشخصي ومواكب التحرير الى فتيان العشيرة، من فصاحة القوة الى ضياع الاخرس، من نبوغ الارادة الى انطفاء الحيلة .. امضى صدام وقته، حسب الرواية الاميركية للحدث، في حفرة عمقها 180سم غير بعيدة عن احد قصوره، فيها كوة للتهوية، ومنها حفر نفق نحو قبو شبه بالجحر يتسع لشخص واحد، وهناك كان يختبئ، لم يعرف منذ متى وهو هناك، ومن المرجح انه تنقل بين مواقع مختلفة تشبه الجحر الذي اختفى فيه، انها النقطة وقد وضعت اخر السطر مؤذنة لجحافل الجند بالنزول عن ربايا الانتظار، منذ ثلاثة حروب وهي تنتظر، ولمطر الرصاص الاسود بالعودة الى البنادق الباردة، فقد ملت اجساد بشرية عنف توثيقها الى الاعمدة، وزحف دم عراقي على الجدران، دم قديم يشهد بمحو الشعارات والوصايا، يزيل التماثيل والجداريات، ويطفيء فتيل الابادة والبطولات، يترك صورة الرئيس وحدها شاهدا ناصعا على فكرة الزوال، على حقيقته الحية المؤذنة وقد توزعت في لحظة رقمية على شبكات محطات الاستقبال منطلقة من مركز ارسال واحد: هو الشعور العراقي وقد تمثل هذه الصورة وكرر اطلاقها على امتداد عقود طويلة حافلة، لكن العالم لم يكن قد هيأ اجهزته للالتقاط فبقيت هذه الصورة حبيسة المسافة الفاصلة، بين اكثر الصور تأثيرا في نمط العلاقة بين حاكم ومحكوم داخل التجربة العراقية، المواطن يستعيد تصوره الشخصي، امله في انحدار الرئيس كلما اشتد الجور من حوله وتصاعدت وتيرة العدوان، في آلية دفاع نفسي، مثلما تتوالى بالمقابل صور الرئيس بهيئته الظافرة كلما اضاف لتاريخه تراجعا جديدا. الصورتان تتواجهان: صورة الأمل الصامت المستتر، وصورة العلن الضاج، بانتظار لحظتها الفاصلة.

صورة المواطن وقد عاشت طويلا في الجهة المستترة من رغبات العراقيين ومرارات ايامهم، متحينة لحظة رؤيتهم صورة الرئيس المرسلة عبر وسائل الاعلام بعد غياب ثمانية شهر شعورا خاصا، شعور العارف المنتظر، وهو الشعور الذي ميزهم عن شعوب الارض وقد هزتها الصورة بظلالها الرمزية المنطوية على انحدار مثل الدكتاتور، بما تحتوي من امثولة اخلاقية وبرهان استدعيا على نحو مباشر تمثيلا حيوانيا للرجل في لحظة سقوط، المفارقة التي لم يتخيلها عقل الدكتاتور وهو يتوزع في تحداره العظيم بين الفأر، والبقرة، والاسد.. كان فأرا حسب تصريح بول بريمر الحاكم الامريكي للعراق في حديثه عن استسلام صدام (مذعورا مثل اي فأر)، وكان بقرة باحتجاج الكردينال الايطالي رينانو مارتينو على معاملة الجيش الامريكي لصدام مثل اي بقرة، وكان اسدا بتعبير رغد كبرى بناته في تفسيرها للحال التي بدا عليها قائلة (ان الاسد يبقى اسدا حتى في الأسر). سيدخل بول بريمر، ورينانو مارتينو، ورغد الى الكادر، مثلما ستدخل رنا ابنة صدام (المعتزلة عن العالم الخارجي) كما تصفها الوكالات، مطالبة بازالة ما وصفته بـ (الصورة المشوهة لوالدها)، مؤكدة الهيمنة الكاملة للصورة وهي تنتقل بالقائد من حال الى حال، محاولة بازالة الصورة الراهنة استعادة صورة مجد لم يعد لاستعادته من سبيل، كأن الصورة الحقيقية له هي ما اشرف مباشرة على افتتاحها بحذف ما يشين بطولتها ويقلل من معيار الخلود فيها، فالخلود، في صميم مفاهيم الدكتاتورية، خلود صوري! لم تكن صور القائد بقعا لونية منتظمة على ورق، كما لم تكن تماثيله محض شواخص برونزية قابلة للصدأ او السقوط او الزوال، كانت تجسيدا قاهرا للهيمنة في هيئة انسان.

سيدخل الجميع الى الكادر، كما سيدخل كثيرون غيرهم، بعضا من الصورة التي حققت صدمتها الفائقة وهي تضرب حجر الحقيقة بحجر الخيال، مستفيدة من ملايين الصور التي ضختها آلة اعلام الدكتاتورية: صور البطولة والفروسية والمواجهة والاباء بوصفها مرجعية تمثيل عالي الجودة لعبقرية الصناعة الامريكية وهي تشكل من ملايين المشاهد الغائبة شبكة للوصول الى صورة اخيرة حاضرة ستظل تتغذى وتعيش في التاريخ والخيال على كل ما سواها من صور القائد، كما ستعيد الهيمنة الامريكية ذاتها كلما استعيد وجود صدام في السلطة او خارجها.. لقد حكم على الرئيس المخلوع ان يكون وشما شرقيا على ذراع البطولة الامريكية، وان يعيش ابدا في هلام امجادها.

قال صدام لحظة قبض عليه حسب الرواية الامريكية:

.أنا صدام حسين، أنا رئيس العراق وأريد التفاوض.

لكن الجواب جاء قاطعا:

. الرئيس جورج بوش يرسل إليك تحياته!

وفي تغطية عالية للحدث تناقلت وكالات الانباء صورة الشعب الياباني الدؤوب وقد انقطعت حركته وتجمع مواطنوه في الشوارع والساحات ليعيشوا المشهد منذهلين وقد ارتسم امامهم على الشاشات الكبرى، الرئيس بلحيته الكثة الشائبة وحاجبيه الكثيفين، بعينيه الحمراوين وشعره المنفوش، يمنح هذا الشعب، بغير ارادته، مثلما يمنح شعوب الارض وهو يفتح فمه، بالضوء الاحمر في فمه، ما لم يمنحه تاريخ الامبراطوريات من معان عن سطوع السلطة وانطفائها!

إنها الصورة تمنح العالم، من جديد، وجها راسخا، لحظة خالدة.

وهي الصورة التي حققت سقوطا كاملا للنظام، وانجزت احتفال البطولة الامريكية على طريقتها الخاصة، فعلى الرغم من الاشهر الثمانية التي دخلت قوات التحالف فيها الى العاصمة العراقية، وعلى الرغم من الازالة الشعبية للصور والجداريات والتماثيل وعلى الرغم من بيانات الادارة الامريكية المؤقتة وقرارات مجلس الحكم وتشكيل الوزارات العراقية وتغيير العملة، ظل شيء ما غير مكتمل في الفصل الأخير من ستراتيجية الصدمة والعنف، شيء مثل طيف خاطف او ظل قاتم، او يد تتحرك خلف مشاهدة القوة، إنه ظل الرئيس، وطيفه، ويده، وقد اخذ يتحرك حركته الرمزية التي كانت تبدو اكثر وضوحا كلما طال بها الزمان، وهي الحركة التي افادت من روافد بطولة مضافة، اذ اخذت هيمنة غيابها تمول من رصيد عالي للمواجهة، على الرغم من اوجه الاختلاف بين حركات المواجهة المسلحة وحزب البعث، وبين اسامة بن لادن وصدام، لكنها موازين الحدث تتطلب في أحيان كثيرة تقريب المتباعدين، وهو ما يفسر المكافأة المجزية التي وضعتها الولايات المتحدة مقابل الادلاء بأية معلومات تدل على صدام.. الولايات المتحدة عبر مكافآتها، تعترف بنقصان مشهد بطولتها، على الرغم من خيمة التعقيم التي عرضت فيها جثتا عدي وقصي بعد التجميل، وعلى الرغم من تساقط اوراق قيادة النظام المطلوبين.. ان صورة صدام ظلت تتحرك خلال الاشهر الثمانية الفاصلة بين ظهوره الاخير في الاعظمية ساعة سقوط تمثاله في ساحة الفردوس، وبين ظهوره منهكا في حمام، او محجر صحي، او ردهة طب عدلي، او مطبخ في احسن تقدير، مقادة بارادة رمزية، مستفيدة من صور كثيرة سابقة وحوادث ومواجهات، انها سياسة الوصول الى الهاوية تطل بكيفية جديدة، بعد ان لعبها صدام طويلا، محققة اثرها في المشهد، مثلما عملت على اربك المواطن وهو يستمع لحكايات ظهور صدام هنا وهناك ظهورا اسطوريا، بهيئته المتحدية واصراره على الجهاد، لذلك لم تكن صدمة الصورة الاخيرة قابلة للفهم والتفسير الفوريين انها النار التي اكلت ملايين الصور والاماني والطموحات والمخاوف والاحلام، وهي الريح التي اتت على القلعة الراسخة.

لم يكن صدام حدثا عارضا في تاريخ العراق، ولم تكن صورة اعتقاله تلويحا مذلا بالقوة الامريكية التي لا تقهر، كان المشهد بتفصيلاته الصغيرة، المرئية منها وغير المرئية، علامة تحول، وفاصلة بين زمنين.

بدأ الحديث عن تأسيس قناة اخبارية ايرانية ناطقة بالعربية قبل عامين تقريباً، بلون من المبالغات المألوفة في لغة الدعاية الايرانية، حتى اتصل بي يوماً الشاعر يقين البصري قائلاً بأن الحاج فلان (مدير الانتاج في قناة العالم - مكتب طهران) يرغب في رؤيتك مع آخرين، ويحمل معه عرضاً بالتعاون مع قناة العالم وانتاج بعض البرامج. التقيناه في مدينة قم في يوم قائظ من صيف، وحدثنا عن مشروع القناة. قلت له يومها: هل انت جاد في القول بأن الايرانيين يودون تأسيس قناة متخصصة على غرار فضائية الجزيرة؟ قال نعم وقد خصص علي الخامنئي ميزانية كبيرة للعمل. قلت: ان الاعلام الايراني الناطق بالعربية هزيل للغاية، ولا ادري ان كان يمكن تجاوز مشاكله في المشروع الجديد، وتقديري الشخصي ان ذلك لن يتحقق الا مع استقلال عمل القناة عن القرار السياسي. اشتكى ظروف العمل مع الايرانيين وقال انها ستكون تكراراً لتجربة القسم العربي الهزيل في قناة سحر. لم نتفق على شيء لأنني اشترطت ان استضيف عبد الكريم سروش مع محمد اركون في أول حلقة من برنامج يمكن ان يحمل عنوان (تحولات). وبالطبع فان الرجل أبدى تخوفه حيال المطلب هذا فسروش يخضع لفيتو من المحافظين يحرمه من الظهور في أي وسيلة إعلام ايرانية.

أية نسخة من الإسلام تحاول قناة (العالم) أن تصدرها للعراق؟

سرمد الطائي

وصلتني بعدها عروض أخرى كان أكثرها سخاءً ما وجهه لي الأستاذ علي المؤمن (عراقي يحمل الجنسية الإيرانية، مدير مكتب قناة العالم في بيروت) حيث اقترح إعداد برنامج يحمل عنوان (عالم يعيش المستقبل) لكنني اعتذرت كذلك بطريقة او بأخرى عن المقترح. بدأ البث التجريبي نهاية شباط الماضي وتحول الى بث كامل بمجرد بدء الحرب يوم من الشهر ذاته، ورأينا قناة لا ينقصها سوى رتوش محدودة لتمثل مؤسسة تدافع عن نظام صدام في لحظات الاحتضار. كان عذر من نعرفهم في القناة بأنهم باحثون عن الماء والكلأ أينما اتفق. رأيت أحدهم يعتذر عن مؤاخذتنا بأنه عبد مأمور وأن الأمر خاضع لقسم الاستخبارات بمكتب الخامنئي وهنالك متابعة على مدار الساعة لكل خطوات العمل (كان المتحدث مسؤولاً كبيراً في مكتب بيروت، رأيته في منزل صديق عراقي نهاية تموز الماضي). اتصل بي ذات يوم إيراني يعمل في منصب رفيع بوزارة الثقافة الإيرانية طالباً مني ان أتولى تعريب أطروحة دكتوراه لصالح جامعة سانت جوزيف ببيروت، تحدثنا عن أشياء كان من بينها قناة العالم، وأعرب عن شكواه وشكوى زملائه منها وكيف أن أجهزة الإعلام الرسمي كلها تابعة مباشرة لمكتب الخامنئي!

عدت الى العراق ووجدت ان قناة العالم توجه بثها الأرضي الى المدن العراقية، وتلاقي سخطاً واسعاً بين الأوساط العراقية لأنها كانت تنحاز بشدة الى صدام حسين. طالبني بغدادي خفيف الظل بأن أفسر له هذه المفارقة: ألم يطلع (الولي الفقيه) على الأخطاء الفادحة المرتكبة بحق العراق في برامج القناة هذه؟

لا أجد شهية للتأشير على الكم الهائل من الأخطاء الفنية في برامج القناة ولا سيما تلك التي تبث من طهران وينتجها (كادر ايراني) (أخطاء الترجمة وعجمة النصوص، فجاجة المؤثرات الصوتية، جهل بذوق المتلقي العربي... الخ). لكن ثمة بروباغاندا رخيصة تمارسها القناة بشكل مقزز يفوق بكثير دعاية بعض القنوات العربية التي يديرها محترفون حقيقيون في الإعلام الرثي. ليس هذا هو المأخذ الوحيد الذي أسجله على إيران بوصفي جزءاً من الجالية العراقية التي اضطرت للإقامة الطويلة هناك (-). ثمة ركام من الجراح لا أود له أن ينكأ، إذ يكفينا اليوم أن نتعاهد جراحنا الداخلية. راودني كثيراً حين عبرت نقطة الشلامجة الحدودية، أن أجعل أول نص أكتبه في العراق حكاية لمأساة عشناها في بلاد فارس، ليحمل عنوان (عراقيون في "بلاط" خسرو "كسرى") دلالة على إيحاء تهكمي. لكنني رحت أشاهد ملامح الدمار على وجه مدينة حزينة مهملة، فأسفرت لي البصرة عن جرح العراق الغائر، وأنصت الى حفيف ريح داعبت سعفات نخلتي القديمة فقرأت عويلاً للآلاتي في هذه الأرض، يهزني لغط أشباحهم وهي تجوب أطراف الشاطئ الكبير، وأصاب بدوار حين أرى خزانات النفط عائمة على سواحلها الفقيرة، فيعتريني دوار (أخاله للغرباء) بدأ يتدفق على بوابات مدن منهكة. شغلني كل ذلك عن إيران وجدلها. لكن يبدو أن إيران هي التي تحثنا على العودة الى حديثها كل مرة.

أثارني حالياً أن كل ركام الديماغوجيا المبثوث في معالجات (العالم) بطريقة بدائية، لم يمنع من يأتي ليتحدث عن حيادية متفردة امتازت بها القناة على سواها بأداء مهني عال في تغطيتها للحدث العراقي. هل يبحث أخونا هذا عن الكلأ والماء أيضاً بتصريحاته في برلين؟

هل أخشى ان اعلن هنا أنني مستفز؟

أتكلف أحياناً مشقة مرور سريع على بعض ما تنتجه قناة العالم مما يخص العراق (المحور الرئيسي فيها) وأقارنه بالوضع الإيراني الداخلي (ولي أن أزعم بأنني خبير به خائض في تفاصيله) فأتذكر بشيء من المرارة وكثير من السخرية هياج رجل دين ايراني صاح بي في آب الماضي، وأنا أحزم حقائب العودة وأحدثه عن إصرارنا على دخول مرحلة ازدهار جديدة: لقد جففت أمريكا آبار نفطكم ونقلت احتياطي العراق كله الى مخازنها بآلات متطورة، منذ نيسان! فعن أي ازدهار تتحدث؟ تحسست في حديث الرجل مرارة كبيرة تحركها خصلة جشع، فهو يحلم بنفاد نفط العراق واحتياطيه الهائل قبل نضوب النفط الإيراني (سيتساوى انتاج ايران من النفط مع حاجتها المحلية خلال سنوات). أحاول وحسب التنويه بالناقة القلقة التي تخشاها إيران. كان أول تصريح يدلي به الشيخ رفسنجاني بعد سقوط نظام صدام من منبر صلاة الجمعة انه لن يتنازل عن تعويضات الحرب الإيرانية التي يزعم أنها تبلغ مليار دولارا! يتحدث الشيخ رفسنجاني وهو يستعذب عن بعد، رائحة نفط آبار مجنون العراقية التي طالب بها يوماً (مذكرات علي أكبر ولايتي وزير الخارجية السابق). لا يصعب علي أن أتخيل موقف صاحبنا هذا حين تخبره لغة الأرقام ان استقراراً أساسياً يمكن ان يعني ارتفاع صادرات العراق من النفط الى (50) مليار دولار خلال عام واحد (حصة العراق في أوبك) بينما لا يتاح للشيخ سوى 20 مليارا من عوائد النفط لسبعين مليون ايراني (أضعاف سكان العراق) لا يعرف كيف يوزعها بين موازنته الشحيحة (مليار دولار فقط) ومشروع التسلح الباهظ وديونه، ونفقات السياسة الخارجية. أنى للشيخ رفسنجاني أن يفسر ازدهاراً عراقياً إلى جواره تباع فيه سيارة يابانية حديثة بعشرة في المائة من سعرها في إيران (تفرض ضريبة تصل إلى عشرة أضعاف القيمة على السيارات المستوردة في ايران بلد "الموتورسيكلات") لأن المحافظين يحتكرون صناعة تجميع السيارات في ايران ليبيعوها بأربعة أضعاف كلفة إنتاجها ويفرضون الباقي إتاوات على المستهلك.

كيف في وسع المحافظين الإيرانيين يا ترى أن يشاهدوا الى جوارهم حياة دستورية مستقرة يتحرك الإسلاميون العراقيون في إطارها أسوة بالتيارات العراقية الأخرى لتداول السلطة سلمياً؟ هل نضم الى هذه الصورة التي نسعى إليها جميعاً، صورة الانتخابات الشكلية التي تجري في إيران؟ صوت في المائة من الناخبين الإيرانيين لصالح خاتمي (أي انهم صوتوا ضد الولي الفقيه الذي تستنفر مؤسساته الإعلامية قبل الانتخابات وتدعو الناخب الى التصويت ضد خاتمي "المنحرف عن أهداف الثورة") وحصل الإصلاحيون على في المائة من مقاعد البرلمان في انتخابات الدورة الأخيرة. لكن خاتمي صرح قبل بضعة أشهر للصحافة بأن صلاحياته ليست أكثر بكثير من صلاحيات المواطن العادي، بينما قال مهدي كروبي رئيس البرلمان بأنه لم يفلح بعد عامين من العمل الشاق، في إنجاح مشروع قرار صادق عليه البرلمان يقدم تحديداً قانونياً لمفهوم الجنحة السياسية، التي تحولت إلى ذريعة لاعتقال الكثيرين عشوائياً، ناهيك عن كل القرارات المهمة التي رفضها رجال الخامنئي المشرفون على البرلمان، مما جعل النائب لقمانيان يقول: أننا في البرلمان مجرد دمى! تعليقاً على حظر الخامنئي على البرلمان مناقشة قانون المطبوعات.

أي نسخة من الإسلام تحاول قناة العالم أن تصدر؟ تزعم الجهات الإيرانية الرسمية أنها تعتمد قراءة إصلاحية للإسلام تتولى تجديد الفقه الكلاسيكي، وأن الخميني هو إمام المجددين في العصر الحديث. قناة العالم ناقشت قبل أيام ظاهرة تولي المرأة للقضاء في العراق، واستنهضت في برنامجها الساخن، همم الذكورية لرفض ذلك وراح مراسلها سيء الإعداد والتدريب يسأل البسطاء عن موقفهم حيال امرأة تمارس القضاء، وتخالف حكماً شرعياً ((أجمع عليه أئمة المذاهب والشيعة والسنة والعرف والتقاليد حيث تشجب هذه كلها ممارسة المرأة للقضاء)). المراسل المبتدئ يجهل طبعاً أنه لا إجماع على هذا الحكم، وأن الفقيه الإيراني الأردبيلي المعروف بالمقدس أفتى قبل أربعة قرون إلى جانب العديد من الفقهاء المعاصرين (شمس الدين، جناتي، صانعي...) بجواز تولي المرأة القضاء، وأن المرأة في إيران بدأت تدريجياً تدخل هذا السلك برغم الفقه التقليدي. لكن رؤساء المراسل هذا وواضعي البرامج يدركون ذلك جيداً، ويعرفون بوضوح النسخة البدائية التي يحاولون تصديرها الى العراق. هل يذكرنا هذا بشيرين عبادي (القاضية الحائزة على نوبل) التي تلقت أخيراً تهديداً بالقتل من جماعة إيرانية متطرفة ترعاها الاستخبارات هناك؟

التقيت في مدينة قم أحد الزملاء قبيل تغيير النظام العراقي، وكان متحمساً لما يجري في العراق رافضاً المزايدة على وطنية من يتحمس لهذا الخيار. لكن هذا العراقي يعمل اليوم مراسلاً لقناة العالم في بغداد (يبحث عن الماء والكلأ طبعاً) لا يكاد يستطيع ان يتحدث بلغته الوطنية المتحمسة تلك، وهو يخضع كل صباح تقريباً لاستجواب مذيع لبناني على الهواء مباشرة. شاهدته مرة وهو يتلعثم محاولاً ان يغالب حرص المذيع على رسم صورة ديماغوجية عن الوضع في العراق، ويتمنى ان يتيح له هذا الملكي أكثر من ذلك، فرصة للحديث عن المكاسب المتحققة بعد رحيل النظام، لكن استراتيجية القناة لا تريد منه أن يغطي سوى مشاهد الموت ويضخم نماذج القلق الأمني ويهول او يختلق مستويات التبرم بغياب الاستقرار. هذا هو حال مراسل آخر أعرفه يجد نفسه مجبراً على تكوين صورة مأساوية لعيد الفطر الفائت في العراق، ولا يستطيع القول بأن العائلة اليوم تتمتع بعشرة أضعاف دخلها في الماضي. ألا يذكرني حرص قناة العالم على هذا الموضوع تحديداً بما يتعرض له العيد هذا من تجاهل في إيران؟ (يسمونه هناك: عيد العرب، ولهم فيه عطلة يوم واحد منتظرين عيدهم القومي الشهير "نوروز" حيث عطلته أسبوع كامل.

العراقيون الباحثون في (العالم) عن الماء والكلأ، مأمورون بتحويل كل مفردات الشارع العراقي، الى دلالة كاريكاتيرية على فشل راهن ومستقبل مظلم وطريق مسدود، وأن الخيار الأمريكي إذا ما تكرر في مكان آخر فإنه لن يجلب سوى الدمار. يحاول واضع الاستراتيجية الإيراني أن يوهم نفسه بأن قلاع الدكتاتورية الوطنية أكثر نفعاً من خيارات الليبرالية الغربية المعولمة، رد أمنه ربما على بيانات أصدرها الطلبة والنقابيون وسواهم في إيران، باركت سقوط صدام حسين وعدته بداية لتهاوي عروش الدكتاتوريات الوطنية في المنطقة على يد ((إسكندر العصر)) وهو وصف أسبغه الطلبة الإيرانيون على أمريكا.

أنا أعدما جاء في المقال دخولاً على مداخلات العالم، وأخشى ان يتداخل خطابي مع خطابهم الاستفزازي، ضمن محاولتي قراءة ما سكت عنه المشهد او مقاربة رؤية مسبقة تدخلت في تكوينه. وفي وسعي ووسع غيري، الحديث حتى نهاية القرن الحالي عن وضع إيران ومآسيها الداخلية. وفي استطاعتي أن أنصح قناة العالم بأن تنشغل بشؤون بلادها الخاصة وتلقن مسؤوليها درساً في الشفافية السياسية هم بحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضى. في وسع العراق أن يرد على كل محاولات التدخل بأداء رائع (إذا ما تخلينا عن السياسات الهزيلة وحرصنا على إنشاء إعلام لا يراهن على غباء موهوم للمتلقي كما هو الحال مع معظم المشاريع الراهنة) ولكن: هل تستثمر القيادات (الحكيمة) في إيران الدرس الأخير بعد كل الفرص الضيعة حتى الآن؟ هل يمكننا أن نعظهم بموعظة أبلغ من تلك التي يوجهها المواطن الإيراني الحاصر في وطنه، وهو يحلم بأن ((يعود وطناً مرة أخرى))؟ أقول هذا وأنا أطمح الى علاقة مع الشعب الإيراني تقوم على أسس الشراكة في أزمة راهنة وخيارات متقاربة وتقدير لواحدة من أكثر التجارب الثقافية والسياسية، إلفاتاً للنظر في العالم الثالث.